﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ [النَّبأ: 1 - 5]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

القرآنُ أبانَ حِكمةَ الرَّحمن بأفصَحِ أُسلوبٍ وأعجَزِ بَيان

بعدَ أنْ خُتِمت سورة المُرسَلات بذكرِ تكذيبِهم بيوم الفَصْل، ووَعيدِهم بالوَيلِ المُتكرِّر، والتّنبيهِ إلى أنَّهم إذا كَفَروا بهذا القرآنِ فلن يُؤمنوا بشيءٍ بعدَه، افتتحَتْ سورةُ النَّبأ بتعجيبٍ مِن إنكارهم، وتنبيهٍ إلى أنَّ ما خالَفوا فيه الرَّسولَ أمرٌ ظاهرٌ لا يقبَلُ النِّزاع، إذ القرآنُ قد أبانَ حِكمةَ الرَّحمن بأفصحِ بيانٍ وأعجَزِ أسلوب، فجاءَ الاستفهامُ في قولِه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ على سبيلِ الإنكارِ والتَّوبيخ، للدِّلالة على أنَّ مَوضِعَ خِلافهم لا يَخفى حتَّى يحتاجَ إلى سُؤال، بل هو أوضَحُ مِن أنْ يَختلِفَ فيهِ عاقلٌ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّبَإِ﴾: أصلُ (نبأ) يدلُّ على الإتيانِ مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنْبَأُ مِنْ أرْضٍ إلَى أرْضٍ: نابِئٌ، وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ، ومِنْ هَذا القياسِ النَّبَأُ: الخَبَرُ؛ لِأنَّهُ يَأْتي مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ[2]، وقيّدَهُ الرّاغبُ بثلاثةِ أُمورٍ؛ فقالَ: النّبَأُ خبرٌ ذو فائدةٍ عَظيمة، يَحصُلُ به علمٌ أوْ غلبةُ ظنٍّ، قال: ولا يقالُ للخَبَر في الأصل (نبأٌ) حتّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثّلاثةَ، وحقُّ الخَبَر الَّذي يقالُ فيه: نبأٌ أنْ يتعرَّى عنِ الكذِب[3]، وقيّده في المُعجَم الاشتقاقيِّ بسَبْقِ الخَفاء، ومنه النَّبْأة: الصَّوتُ الخفّي، والنّبَأ كذلك: ما كان خفيًّا قبلَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 190.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين عمدة الحفّاظ: (نبأ).

الإخبارِ به[1]، والمرادُ بـ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ في قولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: القرآنُ في قولِ جَميعِ المُفسِّرين. وقال أهلُ المعاني: النّبَأُ العظيم: الخبَرُ العظيمُ الشَّأن؛ وذلك أنه يُنبئُ عن التّوحيد، وصفةِ الإلهِ، وتصديقِ رَسوله، والخبرِ عمّا يجوزُ وعمّا لا يجوزُ، وعن البعثِ، والنُّشور، والنَّفخ في الصّور، وقيامِ النّاس منَ القُبور[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الجزاءُ الإلهيُّ المتين مُحيطٌ لا مَحالةَ بالمُكذِّبين

تُخبِرُنا الآياتُ الكريمة أنَّ قُريشًا في حالةِ تَساؤُلٍ مُستمرٍّ عن النَّبأ العظيم، الَّذي جاءَ به النبيُّ ﷺ، وهو القرآنُ، وما دعا إليه من توحيدِ اللّه واليوم الآخر، فتساؤُلُهم يُنبئُ عن شكّهم وضَلالهم، وتخاطِبُ الآياتُ هؤلاءِ المُكذِّبين بتحذيرٍ قاطع: أنَّهم سَيَعلمونَ عندَ موتِهم عاقبةَ إنكارِهم للرَّسول ﷺ وتكذيبِهم النُّبوَّة، وسَيَعلمونَ يومَ البَعْث حينَ يُحشَرونَ إلى النار، حينَ لا يَنفَعُهم عِلْمُهم ولا إيمانُهُم، لتُؤكِّدَ على حتميَّةِ الجزاء، وعَجزِهم عنِ الإفلات من حُكْمِ اللّه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِعُ جُملةِ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ في النّظم:

التمهيدُ للبَعث بأسلوبٍ يُثيرُ الانتباهَ ويُعمّقُ وقعَهُ في النّفْس

افتُتِحَ النظمُ في هذه السّورةِ الكريمة باستفهامٍ عن مَوضوعِ التّساؤُل، فقالَ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثمَّ جاءَ الجوابُ عنهُ بقولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، والجملةُ في مَوقِعِ التَّمهيدِ لما سيُذكرُ لاحقًا من أمرِ البَعْث، الَّذي كانوا فيه مُختلفينَ، فكان هذا الاستفهامُ أداةَ تشويقٍ وإثارةٍ لاهتمام السّامع، ولم يُذكَرِ الخبرُ أوَّلًا، بل أُرجِئَ في الأسلوبِ حتى تولّدَ التطلّعُ إليه، ثمَّ أُبهِمَ بلفظ: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ليزدادَ وقعُهُ، ثمَّ جاءَ التوضيحُ بقوله: ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾،

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبأ).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 111، 112.
(3) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 501.

فيزدادُ القارئ تعلّقًا بمتابعةِ السّياق، وهذا الأسلوبُ البديع يجمَعُ بين النُّدرةِ والعُذوبة، وبينَ الإجمالِ المُثيرِ والتّفصيلِ المُبين، فيخدِمُ غرضًا قرآنيًا عظيمًا، وهو ترسيخُ حقيقةِ البَعْثِ والنُّشورِ في نفسِ السّامع، ويُهيّئُهُ لتلقّي ما يلي من مشاهدِ القيامة وعَجائِبِها[1].

الدّلالةُ البيانيّة في الاستهلالِ بـ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾:

براعةُ الاستهلال بحُسنِها تَكشِفُ القضيَّة المحوريَّة وتُـنـبّـه إلى حَسْمِها

الاستفهامُ الافتتاحيُّ والجوابُ عنهُ في قولِه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ لم يكُن قطُّ تشويقًا وتمهيدًا، بل كان أيضًا إيذانًا بأنّ أمرًا عظيمًا سيُفصَل فيه، وأنّ هذا النبأ الّذي اختَلَفَ فيه القومُ لا بدّ من قولٍ حاسِمٍ يُبيّنُ الحقَّ فيه، وإذ كان هذا النّبأُ هو محوَرَ خوضِهم وجدالِهم، فقد جاءَ افتتاحُ السّورةِ به على نحوٍ يُعَدُّ من أبلغِ ضروبِ براعةِ الاستهلال[2]. إذ يَلفِتُ الانتباهَ إلى القضيَّةِ الجوهريَّة، ويُمهّدُ لما سيُعرَضُ من دلائِلِها وحُجَجِها ومَشاهِدِها، وكأنّه يقولُ: هذا ما تدورُ عليهِ السّورةُ من أوّلِها إلى آخِرِها[3].

مَرجِعُ الضَّميرِ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

شُهرةُ المَرجِع، تُـغـنـي عـن التّنصيصِ على المَوضِع

الضَّمير في قولِه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يعودُ إلى جماعةٍ من الغائبينَ، وهُم المشركونَ من أهلِ مكّة، مع أنّهم لم يُذكَروا صَراحةً قبل ذلك في السّياق، لكنَّ هذا الأسلوبَ مألوفٌ في القرآن، حيثُ يُشارُ إلى أقوامٍ بألفاظٍ أوْ ضمائرَ عامّةٍ دونَ أنْ يُصرّحَ بهم في المَوضِعِ نفسِهِ، اعتمادًا على شُهرتِهِم وتَكرارِ ذكرِهِم في مواضِعَ كثيرةٍ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو حيّان، البحر: 10/ 383، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 84، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 6، ودرويش، إعراب القران: 10/ 350.

(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 45، وعصام الحنفي، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 1/ 129، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 4/ 282، وابن معصوم، أنوار الرّبيع في أنواع البديع: 1/ 53، والمراغيّ، علوم البلاغة، ص: 378.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 6.

ومَبنى هذا: أنّ المُشركين معروفونَ في الخطابِ القرآنيِّ بأنَّهم محورُ المُعارضةِ والجدالِ، وعليهِ فقد صار يُفهَمُ ذلك من الضَّمير والإشارةِ دونَ حاجةٍ إلى تسميتِهم، فحصلَ الإيجازُ والاقتصادُ في اللَّفظِ معَ تمامِ الفَهْم، وهو من خصائصِ البلاغةِ القُرآنيَّة[1].

نُكتة العُدول بالضّمير عن الظّاهر في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

بقي أنَّ العدولَ عن الظّاهر إلى الضَّمير يُفيدُ عمومَ كلِّ مُتسائلٍ عن إمكانيةِ البعثِ والقيامة ووقوعِهما، فيتحقَّقُ العمومُ الصّادقُ بمُشركي زَمَن النُّزول وغيرِهم من الَّذين يشكّونَ أوْ يُنكرونَ ذلك.

توجيهُ اعتبارِ تساؤُلِهم في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ على جهةِ الاستهزاءِ:

تكذيبُهُم الرّاسِخُ العَميق، يُنافي صدقَ التّساؤُل بطَريقِ التّحقيق

يجوزُ أنْ يكونَ سُؤالُهم في قولِهِ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ليس سؤالَ استعلامٍ حقيقيّ، وإنَّما هو على وجهِ الاستهزاءِ أوِ التّهكُّم، فهم لم يَكونوا طالبينَ للحقِّ أوْ باحثينَ عن جَواب، بل ساخرينَ من الحديثِ عنِ البَعث والنُّشور، وهو شأنٌ كثيرٍ من أقوالِ المُشركين في مواضعَ أُخرى من القرآن، ويدلُّ على هذا المعنى أنَّ حالَهم كانت حالَ مكذّبينَ لا شاكّين، فهُم لم يكونوا في مقامِ التردُّدِ، بل كانوا موقنينَ بالتَّكذيب، مُستقرّينَ عليه في قلوبهم، ما يجعَلُ تساؤُلَهم أقربَ إلى التّهكّمِ منه إلى الاستفهامِ الحقيقيِّ[2].

علّةُ حذفِ ألفِ (ما) في ﴿عَمَّ﴾:

﴿عَمَّ﴾ أصلُهُ: (عَنْ ما)، و(عن): حرفُ جرٍّ، و(ما): اسمُ استفهامٍ، وقد حُذفَت ألفُ (ما) للتّفرقةِ بينَ الاستفهاميَّة والخبريّة الَّتي هيَ الموصولةُ، وللتَّخفيفِ لكثرةِ الاستعمال، والفتحةُ في ﴿عَمَّ﴾ دليلٌ على الألفِ المحذوفةِ، وحذفُ (الألف) من (ما) الاستفهاميَّةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو حيّان، البحر: 10/ 383، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 84، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 8.

إذا دخلَ عليها حرفُ الجرِّ من فصيح الاستعمال[1]. وفي الحذف هنا إشارةٌ معنويّةٌ بديعةٌ، وهو أنَّ هذا التَّساؤُلَ ممّا يَنبغي أنْ يُحذَف، فإنْ لم يكنْ ولابدّ، فيُخفَى ويُستحيا من ذكرِهِ ويُخفَّف[2].

مَعنى (ما) ودلالتُها في ﴿عَمَّ﴾:

في قولِه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وردَ الاستفهامُ بـ(ما)، والأصلُ فيها: أنَّها تُستعملُ للسُّؤال عن ماهيَّةِ الشَّيء وحقيقتِه، كقولك: ما الرّوح؟ ما المَلَكُ؟ أي: ما حقيقتُهما؟ وهذا يدلّ على أنَّ المسؤولَ عنهُ مَجهولُ الكُنْه. فإذا كان هناك أمرٌ عظيمٌ جدًا يَعجَزُ العقلُ عن إدراكِ كُنهِهِ وحقيقتِه، فإنَّه يكونُ في حُكم المجهولِ من شِدّةِ عظمتِه. فصارَ بينَ استعمالِ (ما) للسُّؤالِ عن الماهيَّة، وبينَ عِظَم الشَّيءِ الَّذي لا يُحيطُ به العقلُ وجْهُ مُشابهة. ومن هذه المُشابهةِ جرى التّعبيرُ بـ (ما) هُنا في قولِه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، إذ جاءَت (ما) لا لمُجرَّدِ الاستفهام الحقيقيّ، بل للإيحاءِ بأنَّ هذا الخبرَ عظيمُ القدرِ إلى حدٍّ أنَّ العقولَ لا تُحيطُ بحقيقتِه، فكأنَّهُ مجهولُ الكُنه، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ [المطففين: 8]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾ [البلد: 12]، فالمرادُ ليس مُجرَّدَ طلبِ التَّعريفِ والفَهم، بل التَّفخيمُ والتَّهويلُ، وكأنَّ المُتلقّيَ يعجَزُ عن تصوُّرِ حقيقةِ هذهِ الأمور لعظمَتِها، فـ(ما) خرجَتْ هنا عن أصلِها في الاستفهام عن الماهيَّة؛ لتُستعمَل مجازًا في التَّفخيم والتَّهويل[3]. والقرينةُ على ذلك التَّعظيم والتَّهويل وصفُ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ في الجواب.

المَجهولُ الكُنْهِ كـالشّيءَ العظيمَ الَّذي لا يحيطُ بهِ الوَصف

دِلالة صيغةِ التَّفاعُل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

جاءَ قولُهُ: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ على صيغةِ (يَتَفاعَلونَ) من التّساؤُل، وهذه الصّيغةُ (مثلُ: تساءَلوا، وتراءَوا، وتضارَبوا) موضوعةٌ في

المبالغةُ والتَّكثير تنسجِمُ مع الحدثِ الخَطير

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 410، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 5/ 809.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 190.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 5.

الأصلِ للدِّلالة على أنَّ الفعلَ صادرٌ من أكثرَ مِن واحدٍ، وكلٌّ واحدٍ منهم فاعِلٌ من جهةٍ، ومفعولٌ من جهةٍ أخرى. مثل: تَراءى القومُ أي كلُّ واحدٍ منهم رأى غيرَهُ، فـ(التّفاعُلُ) يجمَعُ بين الفاعليَّة والمفعوليَّة في أطرافٍ مُتعدِّدة. لكنْ لمّا تُسنَدُ الصّيغة لفاعلٍ واحد، يبقى التّركيز على جانبِ الفاعليّة فقط، وأمّا كونُ مَفعولٍ له فيُترك لعقلِ السّامع يَفهَمُه ضِمنًا، وأحياناً يمكنُ تجريدُ صيغةِ (التّفاعُل) من بعضِ المعاني، فيُراد بها فقط: صدورُ الفعلِ من أكثرَ مِن واحد، مِن غيرِ نظَرٍ إلى كونِهِ واقعًا عليهم، مثلُ: (تراءَوُا الهلالَ)، فكلّهم رأوْهُ، لكنَّ الهلال لم يَرَهَم، لكن لمّا كان في مواجهتِهم صار كأنّه رآهُم مَجازًا. وأحيانًا قد يذكرُ معها مفعولٌ، وأحيانًا يُحذفُ لأنَّه مفهومٌ، وأحيانًا تتجرّدُ مِن معنى (المُشاركة المتبادلةِ منَ الطّرَفَين)، ويُرادُ بها فقط تعدُّدُ الفعلِ باعتبار تعدُّدِ مُتعلّقِهِ، مع أنّ الفاعل واحدٌ، مثلُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النجم: 55]، أي: تُجادِلُ أوْ تشكُّ في نِعَم كثيرة، مع أنّ الفاعلَ واحدٌ. وهنا في قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي: عن أيِّ شيءٍ عظيم يسألُ هؤلاءِ القومُ بعضُهُم بعضًا ويتجادلونَ فيه؟ وقد يكونُ المعنى: يَسألونَ بعضَهم بعضًا فيما بينَهُم. أو: يَسألونَ الرَّسولَ ﷺ والمؤمنينَ. أوْ: كلُّ واحدٍ منهم يسألُ ويُجادِلُ في مواضعَ مُتعدِّدة، فصيغةُ التّفاعُل هنا تدلُّ على كثرةِ السّؤال، واشتراكِهِم فيه، وتوزُّعِهِ بينهم، وفيها وصفٌ للحالةِ العامّة بينَ القوم المليئةِ بالجدالِ والتّشكيك. كما أفادتْ صيغةُ المضارعةِ دلالةَ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لذلك التَّساؤُلِ الدّائرِ بينهم ممّا يدلُّ على مَدى إنكارِهِم واستخفافِهِم وظنِّهِم السَّيِّئِ بربِّهِم[1].

دلالةُ تعقيبِ الاستفهامِ بجوابِهِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾:

بيانُ حقيقةِ التّساؤل بتحديدِ محلِّ التّداخُل

لمّا كان الاستفهامُ الواردُ في قولِهِ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ليس غرضُهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 84.

الحقيقيُّ طلَبَ الفَهم، بل أُريدَ به التَّهويلُ والتّشويق، جاءَ بعدَهُ الجوابُ بقولِهِ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ على سبيلِ البيانِ الفاصِل، فوقَعَ موقِعَه البيانيَّ البديع، إذ أزالَ الإبهامَ بعدَ التَّمهيدِ له، فاستقرَّ المعنى في نفسِ السّامع بعدَ أنْ هيّأه الأسلوبُ للتّساؤُل عن أمرٍ جلَلٍ. وقد نُزّل السّامعونَ منزلةَ مَن يجهلُ الأمر ويتشوّقُ لمعرفتِه، ليتوجّه ذهنُهُم إلى عظمةِ النَّبأ المذكور. وهذه طريقةٌ قرآنيّةٌ توظّف الاستفهامَ لا لتطلُبَ به الفَهم، بل لتُنبّهَ الغافلَ، وتُثيرَ انتباهَهُ، وتجعلَهُ كمَن يسأل، فيَنبغي أنْ يُجاب. وهي نظيرُ قولِهِ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: 16] ثُمَّ أجابَ بذاتِه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]، لإثباتِ الأمْرِ وتقريرِهِ بصيغةٍ جازِمة.

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ الجواب:

أوردَ النّظمُ الكريم الجارَّ والمَجرور ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ متعلّقًا بجوابٍ محذوفٍ يُفهَمُ من السّياق، أي: (يَتساءَلونَ عنِ النَّبأ العَظيم)، فحُذِفَ الفعلُ وأُبقيَ المجرورُ للانتقالِ السَّريعِ إلى المقصودِ منَ الكلام، موافقةً للسّياق، ومُراعاةً لنَسَقِ السُّؤال، فجاء الأسلوبُ في أعلى دَرَجاتِ الجَزالة والبلاغةِ التَّنزيليَّة[1].

من عناصرِ التَّعظيم، الإيجازُ في الكلام والتّقديم

مَعنى ﴿عَنِ﴾ ودلالتُها في ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾:

حرفُ ﴿عَنِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الأصلُ فيه إفادةُ مَعنى المُجاوَزة والانفصالِ، كما يقالُ: (رَمَيتُ السَّهمَ عنِ القَوس)، أي جاوزَهُ وانفصَلَ عنه. وهنا دخلَتْ على المَسؤولِ عنهُ، وكأنَّ السّائل يتطلّعُ إلى أمر قد بَعُد عنهُ علمُهُ، فهو يسألُ عنهُ طلبًا لكشفِهِ. وأصلُ السّؤال يتعدَّى بـ (عن)، فيقالُ: سألتُكَ عن كذا؛ فالمعنى أنَّهم جعلوا مدارَ تساؤُلِهم حول هذا الأمر الخطير: ﴿ٱلنَّبَإِ

المُجاوزةُ المَجازيَّة تكشِفُ عن عظمةِ الحالة الاستغرابيَّة

(1) الزّمخشريّ، الكشاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 84، 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 9، ودرويش، إعراب القران: 10/ 351.

ٱلْعَظِيمِ﴾؛ بحرفِ المُجاوزة - هنا - ليُشعِرنا بكونِ المسألةِ خارجةً عَن مألوفِهم، بعيدةً عن مَداركهم، فأثارَتْ ذلك التّساؤلَ بينهم، وهذا يعمّقُ مِن معنى الاستغرابِ والتّشكيك الَّذي وقَعوا فيه، وكأنَّهم جادَلوا واعترضوا على ما ليسَ لهم به طاقةٌ ولا خِبرةٌ.

توجيهُ دِلالتَي الاستقلالِ والارتباطِ في ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾:

تقديمُ المُبهم ليتحقّقَ التّشويقُ بإيرادِ المُفهم

السّورةُ الكريمةُ افتُتحتْ بالاستفهام: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثمَّ جاءَ بعدَها البيانُ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ فهل الجملةُ الثّانية جملةٌ جديدةٌ مُستقلّةٌ؟ أوْ هلْ هي مُتّصلةٌ بالأولى ومُتمّمةٌ لها وجزءٌ من السُّؤال؟ في ذلك توجيهانِ[1]:

الأوّل: توجيهُ البصريّين:

ويَرَونَ أنَّ الكلام قد تمّ عندَ قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي كأنَّ الآيةَ الأولى وحدَها سُؤالٌ على سبيلِ التّهويلِ، ثمَّ جاءَ قولُهُ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ جملةً مُفسِّرةً للسُّؤال، أي: (يتساءَلونَ عن أيِّ شيء؟ عنِ النَّبأ العظيم) فحذفَ (يَتساءلون) لدلالةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في الآيةِ الأولى عليه. ويكونُ المعنى: أنَّهم جعلوا تساؤُلَهم مُنصبًّا على هذا الخبرِ الجَلل، لكنْ بطريقةٍ مُستقلّةٍ أسلوبًا، كأنّك تقولُ: (أتدري ما يَتساءَلون؟ يَتساءَلونَ عنِ النَّبأ العظيم). وهذا الانفصالُ في التَّعلُّق يجعلُ النَّظمَ أبلغَ، لأنَّه يُقسّم الجُملة إلى ضربين: سؤالٌ مهيّجٌ أوّلًا، ثم إيضاحُ خطورةِ المسؤولِ عنه ثانيًا.

الثّاني: توجيهُ الكوفيّين:

ويرونَ أنَّ الآية الثّانيةَ متّصلةٌ بالأولى مُتعلّقةٌ بها، فالمعنى: (عمّ يتساءلون؟ عن النَّبأ العظيم)؛ فكلمةُ ﴿عَمَّ﴾ عندَهم ليستْ سُؤالًا قائمًا بذاته، بل هي في قوَّة: (عن أيِّ شيء يتساءلونَ عنِ النّبأ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 110، 111.

العظيم؟). وبهذا يكونُ الكلام جملةً واحدةً مُتماسكةً، لا جُملتين منفصلتين، وأثر هذا الاختلاف: أنّ رأيَ البصريين يُكسِب النّظم إيقاعًا بلاغيًا قويًّا: إذ يَفصلُ التّساؤُلَ عن تعيين موضوعِهِ، فيتولّدُ تشويق، ثمَّ يأتي البيانُ بعد ذلك. أمّا رأيُ الكوفيين فيُبقي على الوحدةِ المعنويَّة والتّرابُط في التّعلّق، فيظهرُ المعنى في جملةٍ إنشائيَّة استفهاميّةٍ واحدة، بخلاف التَّوجيهِ الأوّلِ القائمِ على جملتين؛ الأولى إنشائيّةٌ، والثّانية خبريّةٌ.

بلاغةُ الوصفِ ودلالتِهِ في ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

وصـــفُ الـنّـبـأ بالعَظَمة لِزيادةِ التّنويهِ بالشّدَّة

جاءَ وصفُ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ بكونه عظيمًا في قولِهِ تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لزيادةِ تعظيمِهِ والتّنويهِ بشأنِهِ، وهو تعظيمٌ مستمدّ من طبيعةِ الخبَرِ نفسِهِ، ومِن مصدرِهِ الَّذي هو الله تعالى، العليمُ بالغَيب؛ فكونُ النَّبأ صادرًا عن ربِّ العالمين يجعَلُهُ مُتجاوِزًا لكلِّ ما اعتادهُ النّاس من الأخبار والأحاديث، ويستحِقُّ من السّامع أنْ يُصغيَ له بأقصى درجاتِ الاهتمام والتّوقير. كما أنَّ وصفَ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ يُنظَرُ فيه إلى مضمونِهِ؛ إذ هو يتناوَلُ أهوالَ البعثِ والنُّشور، وقد سبقتِ الإشارةُ إليه في مواضِعَ من القرآن قبلَ نُزولِ هذه السّورة، فصارَ مَعهودًا عندَ المُخاطَبين أنَّ هذا النَّبأ حين يُذكَر، يُرادُ به أمرُ البعث وما فيهِ من انقلابِ الأحوال، وفصلِ القَضاء، ومشاهدِ اليومِ الآخِر، وكلُّها أمورٌ تستحِقُّ وصفَ العَظمة[1].

دلالةُ اجتماعِ المَوصوفِ والصِّفة:

تـفـخـيـمُ الـنَّـبـأ إلـزامٌ بالإذعان، ودفعٌ لكلِّ تردُّدٍ أوْ بُهتان

إنَّ وصفَ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ بلفظِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ مع أنَّ كلمةَ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ في أصلِها لا تُطلق إلّا على الخبرِ الجَليلِ الشَّأن، إنَّما جاء لمَزيدِ التّفخيم، ولإبرازِ خُطورةِ هذا الخبر على وجهٍ أبلَغَ، فتكرارُ المعنى بأسلوبِ التّوكيد هنا ليس حشوًا، بل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 10.

هو تنبيهٌ مقصودٌ إلى عِظَم استثنائيٍّ في هذا النَّبأ بالذّات. وهذا التّوكيدُ في مقام التّفخيم يُفهَمُ منه أنَّ النَّبأ على هذا القدرِ منَ العَظمة لا يليقُ مَعَهُ التّشكيكُ أوِ الجدَل، بل يجبُ على كلِّ سامعٍ أنْ يُذعِنَ له ويتهيّبَ شأنَه، فلا يجعلُه محلَّ نزاعٍ أوِ استهزاء، كما كان يفعَلُ المشركون، فهو ليسَ كغيره من الأخبارِ القابلةِ للرَّدّ أوِ التّأجيل، بل هو خبرٌ يقينيٌّ ومَصيريٌّ واجبُ التّصديق[1].

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلنَّبَإِ﴾:

كلُّ أنباءِ الوَحْي محَلُّ تساؤُلٍ وجِدالٍ قويّ

التَّعريفُ بـ(أل) في قولِهِ ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هو تعريفُ جنسٍ، لا تعريفُ عهدٍ، أي: لا يُقصَدُ به نبأٌ معيّنٌ فقط، بل يُراد به كلُّ خبرٍ عظيم بلّغَهُم به النبيُّ ﷺ من أمورِ الدّين الكُبرى، وعلى رأسِها البعثُ والنُّشور. فيكونُ المقصود أوسعَ من حصرِهِ في خبرٍ واحد، بل يشمَلُ عمومَ الرِّسالة بما فيها من التَّوحيدِ والوَحْي والحِساب والجَزاء، ممّا أثارَ جدَلَهم واستهزاءَهُم[2].

دلالةُ وصفِ النَّبأ العظيمِ بالاختلافِ فيه:

خُطورةُ الاختلاف، في النَّبأ المتّصِف بالإنصاف

وُصِفَ النَّبأُ أوّلًا بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾، ثمَّ وُصِفَ بقوله: ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾، الدالِّ على زيادةِ التّأكيدِ على خطرِهِ وجديّتِه. وهذا التّتابُعُ الوصفيُّ ليس تعديدًا في الألفاظ، بل تعميقٌ لمكانةِ النَّبأ وأثرِهِ في النّفوس، إذ يعكِسُ حالةَ الاختلاف والجدلِ حولَه، ويُهيِّئُ السّامعَ أوِ القارئَ لمُدارسةِ أمرِ النَّبأ والتَّساؤُلِ عن حقيقته، بما يدلُّ على أهميَّة الانتباه والجديّة في التَّعامُلِ معَهُ[3].

نكتةُ التَّعبير بالمَوصولِ وصِلتِهِ في ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾:

الكفرُ والتّكذيبُ بما يَستوجِبُ الإيمانَ والتَّصديقَ الأكيد

في قولِهِ تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ جاءَ التّعبير باسمِ الموصولِ وصلتِهِ؛ زيادةً في التّهويلِ والتَّفخيم، فالمَوصولُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 191.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 10.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 85.

﴿ٱلَّذِى﴾ يُشعر بأنَّ المقصودَ أمرٌ معلومٌ عظيمُ الشَّأن، ثمَّ تأتي الصِّلةُ لتكشفَ عن حالِهِ؛ فكأنَّ الكلامَ يقول: (هو ذلك الخبرُ الجلَلُ، المشهورُ بين النّاس، الَّذي ملأهُم اختلافًا وجدالًا)، وهذا أبلغُ في التّفخيم من مجرَّدِ الوصف؛ وإبرازًا لخطورةِ حالِهم مع هذا الخبر، فالصِّلة ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ صاغتِ القضيّةَ على هيئةِ جملةٍ اسميَّة، فيها إسنادٌ ثابتٌ: ﴿هُمْ﴾ و﴿مُخْتَلِفُونَ﴾. فدلّ على أنَّ الاختلاف في هذا الخبرِ العظيم أمرٌ راسِخٌ مُلازِمٌ لهم، لا طارئٌ يزولُ عنهم. وأيضًا: تشنيعًا عليهم، فالتّعبيرُ بالموصول يُشعِرُ بكونِهم هم المَعنيّين المَخصوصينَ بالذّمِّ، كأنَّه يُعرّفُهم من خلال مَوقِفِهم المَشين: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، أي: صار اختلافُهم علامةً مُميِّزةً لهم. وليَجعلَ الاختلافَ صفةً قائمةً بذواتهم، لا مجرّدَ فعلٍ فعلوه وانتهى، فصار الاختلاف سجيَّةً لهم، فتلك هي نكتةُ التَّعريفِ بالإضمارِ معَ التّكوينِ الاسميِّ في ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أيضًا.

مَعنى (في) ودلالتُها في ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾:

حرفُ الظَّرفيّة في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، يفيدُ في أصلِهِ: كونَ الشّيءِ واقعًا داخلَ شيءٍ آخر؛ فيدُلُّ هنا على أنَّ اختلافَهم قد أحاطَ بهم وأحاطوا بهِ، فهُم غارِقون فيه كالغارِقِ في ظَرْفٍ يَملؤُه من جميعِ جِهاته، ويدلّ على التّلبُّس والتّمكُّن، فهم متمكِّنون من الاختلافِ فيهِ ومتمكِّنٌ منهم لا يَملِكون فكاكًا منه، ولذا جاءَ بضميرِ الرّفع المُنفصل وحرفِ الظّرفيّة المُقدّم والوَصفِ الاسميِّ ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، أي قد استغرَقَهُم هذا الجدلُ حتَّى صارَ حالًا لهم، ولو قيل: (اختلفوا في النّبأ)، لكان مُجرّدَ خبرٍ عن فعلٍ صدرَ منهم، لكنَّ: ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يصوّر أنَّ الاختلافَ ظرفٌ يحيطُ بهم، وكأنَّهم مُقيمونَ فيه لا يخرجونَ عنه، ممّا يَزيد التّوبيخَ والذّمَّ.

أبعدُ النّاسِ عنِ الإنـصـاف، مَـن استغرقَهُ الجدَلُ والاختلاف

دلالةُ الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ في ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾:

التّخصيصُ والتّأكيد، بيانٌ للاختلافِ الشَّديد

الضَّميرُ في قولِهِ ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ يفيدُ التّأكيد، وفي الوقتِ نفسِهِ يَحمِلُ معنى الاختصاص الادِّعائيِّ، أي: هم على وجهِ الخصوصِ المُختلفون في هذا النَّبأ العظيم، وهذا الأسلوبُ يُبرزُ شدَّة إنكارِهم وتكذيبهم، ويَجعلُهُم في موضعِ المُساءَلةِ والمواجَهة. ومعَ أنَّ الاختلاف في أمرِ البعث لم يكن مَحصورًا في قريشٍ وحدَهم، إلا أنَّ كثرةَ خوضِهِم فيه، وإظهارَهم للعناد والمُكابرة، جعلَهم كأنَّهم هم المُختصُّون به، وقدّمَهم القرآن في هذا السّياق لا لكونهم وحدَهم المُختلفين، بل لأنَّ مُعارضتهم كانت أبرزَ وأشدَّ، فجاء الأسلوبُ مُشيرًا إليهم تعريضًا وتَقريعًا[1].

نكتةُ التّعبيرِ بالاسميَّة في ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾:

ثبوتُ التّكذيب بيومِ الحِساب القَريب

جاءَ التّعبيرُ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ بالجُملةِ الاسميَّة بدلًا من الفعليَّة، كأنْ يُقالَ مثلًا: (الَّذي يَختلفون فيه)، لما في الجملة الاسميَّة من دلالةٍ على الثّبوتِ والاستمرار؛ فليس الاختلافُ عارضًا ولا مَحدودًا بزمَنٍ، بل هو حالٌ راسِخةٌ فيهِم. وهذا الأسلوبُ يرسُمُ صورةً نفسيَّةً دقيقة لحالِهم، فهم ليسوا في طَوْر تفكيرٍ أوْ بحثٍ، بل قد استقرَّ فيهم التّكذيبُ واستمرّ، فصار جزءًا من مَوقفِهم، ممّا يوجِبُ الإنكار عليهم والردَّ الحاسِمَ على باطِلِهم، ويُبرزُ ما هُم عليه من انغلاقٍ وتَعَنُّتٍ[2].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾:

إبرازُ محلِّ الاختلاف والتّكذيب ليثبُتَ نقيضُهُ بالبُرهانِ السَّديد

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مُخۡتَلِفُونَ﴾ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾؛ ليُفيد العنايةَ بشأنِ النَّبأ نفسِهِ، فكأنَّ المعنى: في هذا النّبأ خاصّةً يقَعُ اختلافُهُم، وهو ما لا يَنبغي أن يكونَ محلَّ خلاف؛

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 243.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 11.

لأنَّه نبأٌ عظيمٌ واضحُ البرهان، فتقديمُ المجرورِ يُشعِرُ بأنّ تعلّق الاختلافِ به في ذاته أمرٌ مُستنكَرٌ. وفي تقديم (الجارِّ والمجرور) أيضًا تحقيقٌ لجرْسِ الفاصلة وانسجامِها مع ما قبلَها وما بعدَها، وهي من لطائفِ البلاغةِ القُرآنيَّة، حيث يُراعى المعنى أوَّلًا في النّظم التَّركيبيِّ، ثمَّ يُبنى عليه النَّظمُ الصَّوتيُّ دونَ تكلُّفٍ[1].

دلالةُ ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

الاختلافُ الكبير في ذلك النَّبأ الخَطير

عبّرَ النَّظم الكريمُ بصيغةِ اسم الفاعل مَجموعًا في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾؛ للدِّلالة على تلبُّسِهم بالاختلاف تلبُّسًا مُستمِرًّا لا ينفَكُّ عنهم، كما أفادَتِ الجمعيَّةُ حالةً من التَّشارُك في ذلك الاختلافِ الثّابتِ فيهم، وصيغةُ الافتعال أفادَتِ المُبالغةَ والكثرة في ذلك الاختلافِ الشَّديد.

دلالةُ ﴿كَلَّا﴾:

الرَّدعُ والإبطال لِكلِّ شكٍّ واحتيال

كلمةُ ﴿كَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ جاءَتْ على وجهِ الرَّدْعِ والإنكار، وهي تفيدُ قطعَ الحديث السّابق وتكذيبَهُ، وردَّ ما تضمّنَهُ من استهزاءٍ أوْ تساؤُلٍ باطِل، فهي تردَعُ أولئكَ المُتسائلينَ عنِ النَّبأ العظيم ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وتُبطِل ما يحملُ تساؤُلُهم من إنكارٍ لحقيقة البعثِ ومجادلةٍ فيها، وقد وُضعتِ الجملة في سياقِ الجوابِ عن تساؤُلِهم، فجاءت مفصولةً غيرَ معطوفة، لكونها ردًّا قاطعًا على سؤالٍ باطلٍ. وهذا الرّدعُ القرآنيُّ يوجَّهُ إليهم رغم أنَّ السّياقَ خبريٌّ عنهم، لأنَّهم هم المَعنيّون بالإنذار. وفي هذا الرَّدّ ما يفيدُ إثباتَ البعثِ من وجهٍ بديع، إذ إنَّ إبطال إنكارِهم له يلزمُ منه إثباتُهُ، فالسّياق يقلبُ مَوقِفَهم عليهم، ويحوّلُ استهزاءَهُم إلى حُجّةٍ عليهم تُثبِت حقيقةَ ما أنكَروهُ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 11.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو حيّان، البحر: 10/ 383، وأبو زكرّيا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 595، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 11.

دلالةُ تعقيبِ ﴿كَلَّا﴾ بمضمونِ الإنكار:

الـرَّدعُ بالوَعيد لـتـهـديـدِ أهْـلِ التَّكذيب

الغالبُ في استعمالِ ﴿كَلَّا﴾ أنْ يُعقّب بعدَها بما يوضِّحُ مضمونَ الرَّدعِ ويُحقّقُ الإنكار، ولهذا أُتبِعَ الرَّدع هنا بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، أي: سَيذوقون ثمرةَ استهزائِهم وتكذيبهم، فالعِلْمُ الَّذي يوعَدون به ليس عِلْمًا نافعًا، بل هو علمٌ اضطراريٌّ يأتي بعدَ فواتِ الأوانِ، يواجِهونَ فيه الحقيقة وجهًا لوجهٍ، فيَتَيقّنونَ من وقوعِ البعث، ويُعانونَ من العذاب الَّذي أنكَروه[1].

دلالةُ حذفِ مفعولِ العِلْم في ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾:

الـعُـمـوم أوِ الـلُّـزوم يُنبئانِ عـن الـتَّـهـديـدِ المَفهوم

حُذِف مفعولُ ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾؛ ليشمَلَ كلَّ ما سيَعلمونَهُ من حقائقِ البعث وشدائدِ العذاب، فهو حذفٌ يفيدُ التَّهويلَ والعُموم، ويُنبئُ عن مصيرٍ مُفجِعٍ سيكشِفُ لهم حينَ يحُلّ بهم. وقيل أيضًا: إنَّهم سَيَعلمونَ عندَ الموت ما كانوا يُنكرونَهُ في الحياة، فيكون لهم عِلْمان: علمٌ بحقيقةِ البعث، وعلمٌ بعاقبةِ التّكذيب[2]. ولا يبعُدُ أنْ يكون الفعلُ مُرادًا به اللّزومُ، أي سَيوجَدُ منهم العِلْمُ ويتحقَّقُ ممّا يشيرُ إلى أنّهمُ الآنَ جَهَلةٌ بشكلٍ مُنقطِعِ النَّظير.

بلاغةُ ما أفادَتْهُ ﴿كَلَّا﴾ من الإبطالِ والإنكار:

الإبطالُ للإنكار مُستلزِمٌ لإثباتِ ضـدِّهِ الـصّـارمِ البتّار

الرّدعُ الَّذي تضمّنَتْهُ الآيةُ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وما تَلاها، ليس مجرّدَ إنكارٍ على تساؤلهم، بل هو في حقيقتِهِ إعلامٌ قاطعٌ بأنّ يومَ البعث واقعٌ لا ريبَ فيه؛ فالإبطالُ هنا يَنقلِبُ إلى إثباتٍ بطريقةٍ بلاغيّةٍ راقية؛ إذ إنَّ إنكارَ المُنكَر يُفضي إلى تقريرِ ضدِّه، أي إثباتِ الحقّ. كما أنَّ في هذا الإبطال إشعارًا بوعيدٍ شديدٍ يَنتظِرُهم، فهم لن يَعلموا فقط وقوعَ ما أنكَروه، بل سيذوقونَ عاقبةَ ذلك التّكذيب في الدُّنيا عندَ لحظةِ المَوْت، وفي الآخرةِ بما ينالُهُم من العذابِ العَظيم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 11، 12.
(2) أبو حيان، البحر: 10/ 384، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 11، 12.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 12.

دلالةُ الكنايةِ في ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾:

الإخبارُ بالعلْمِ المُستقبليّ يَستلزمُ الوعيدَ الجليّ

في قولِه تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كنايةٌ عن الوعيد؛ إذ ذُكِر العلمُ وأُريدَ لازمُهُ وهو وقوعُ العذاب، فحصلَ التّصويرُ بإثباتِ الملزوم وإرادةِ اللّازم، وهذا أبلغُ في التّهديدِ مِن التَّصريح؛ لأنَّه يُهيّئَ المخاطَب لتوقُّع أمرٍ مجهولِ التَّفاصيل، معلومِ الفَظاعة، فيقَعُ في النَّفس أشدَّ وقعٍ. ومن بديعِ هذا الأسلوبِ القرآنيّ في الوعيدِ أنَّه يوهِم المُخاطبين بأنَّهم سيُجابونَ على تساؤُلهم، لكن لا بالبرهانِ أوِ الخطاب، بل بالواقعِ الَّذي لا يُكذّب. فقد صوّروا إنكارَهم في هيئةِ سؤالٍ استهزائيٍّ، فجاء الردُّ بصيغة ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ الّتي تحملُ معنى: سَتُدركونَ الحقيقة بأنفُسِكم، ولكن على وجهٍ مُفزعٍ لا يَسُرُّ. وهذا الأسلوبُ هنا شبيهٌ بقول النّاسِ في لُغَتهم: (الجواب ما ترى لا ما تَسمَع)، أي إنَّ الردّ لن يكونَ بالكلام أوِ الحُجّة، بل بما يُعايشونَهُ من شدائدِ المَوْت والبَعْث والعَذاب. وهذا أبلَغُ في الرّدعِ والوَعيد، لأنَّه تحويلٌ للخطابِ مِن حِوارٍ نظريٍّ إلى مصيرٍ مَحسوس[1].

مَوقِعُ جملةِ: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾:

سَيَعلَمُ الظّالمون أيَّ مُنقلَبٍ يَنقلبون

جملةُ ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ (الأولى) في قولِه: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ بطريقِ الاستئناف؛ وعليه فالوقفُ على ﴿كَلَّا﴾ تمامُ الإنكار والزَّجر، ثمَّ استأنفَ بيانَ مضمونِ ذلك بجُملةِ ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، أي: سيعلَمُ هؤلاءِ المُستهزئون أنّ ما كانوا يَتَساءلونَ عنه ساخرينَ ومُستهينين، هو في الحقيقة أمرٌ واقعٌ لا محالةَ، وأنَّ البعث الَّذي أنكروهُ هو حقٌّ مُبرَمٌ[2].

نُكتةُ التَّعبير بالعِلْم بدلَ العَذابِ أوِ العُقوبة:

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (سَيُعذَّبون، أوْ سَيُعاقَبون)، بل قالَ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 12.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85.

الاختلافُ والتّساؤُل يُناسِبُه الوعيدُ بالعِلْم الحاصِل

﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، فعبّر بلفظِ (العلم) دونَ غيره؛ لمُراعاةِ السّياق؛ إذ كانوا قد أظهَروا إنكارَهُم وتساؤُلَهم عن النَّبأ العظيم، فجاءَ الردُّ موافِقًا لمَجراهم الظاهريِّ، أي كأنّهم باحثونَ عن عِلْمٍ ومعرفة، فكان الجوابُ على نفس النّسَق: سيحصُلُ لهم (العلم)، ولكنْ على هيئةِ إدراكٍ مُؤلِمٍ بالحقيقةِ المُرّة، حينَ لا ينفَعُ النّدَمُ، ففيهِ ما فيهِ من التّهكّم بهِم والتّسجيلِ عليهِم[1].

دلالةُ دُخولِ (السّين) على المُضارع:

التأكيدُ بالوُقوع للردِّ على كل ظنٍّ مَقطوع

(السّينُ) في قولِهِ تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ تدلُّ على الاستقبالِ القريب، للإيذانِ بأنَّ ما سَيلقَونَه من عِلْمٍ (أي إدراكٍ للحقائق بعينها) وشيكٌ قريبُ الوُقوع، لا يبعُدُ عنهم كما يظنّون، وكأنَّ القرآن يقولُ لهم: لنْ يطولَ بكم الزّمن حتّى تتكشِفَ لكمُ الحقيقةُ، ولكنْ حينَها لا ينفَعُ العلْمُ ولا يُجدي الفَهْمُ[2].

مَوقِعُ جملةِ: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ممّا قبلَها:

التّوكيدُ بالجُملة لإثباتِ العِلْم بالنِّهاية المُؤلِمة

جملةُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ توكيدٌ للأولى ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ من حيثُ المعنى، وإنْ كانتْ ليستْ توكيدًا باعتبارِ اصطلاحِ النحويّين؛ لأنّه فُصِلَ بينها وبينَ الّتي قبلَها بحرفِ العطف، والتّوكيدُ لا يُفصَلُ بينَهُ وبينَ مؤكَّدِه بشيءٍ مِنَ الحروف[3].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾:

لم تجئ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ للتّراخي الزّمنيّ، وإنّما للتّراخي الرّتَبيِّ، أي إنّها تفيدُ تصاعُدًا في المَعنى والغَرَض، فما بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ أعظمُ أثرًا وأشدُّ تهديدًا ممّا قبلَها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 12.
(3) تفسير ابن عثيمين - جزء عمَّ، ص: 25، 26.

دلالةُ التَّكرارِ في ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾:

التَّكرار العَريض لمزيدِ التّأكيدِ والتّغليظ

مع أنَّ الجُملة بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ هي نفسُها في ظاهِرِها: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ إلّا أنَّ التكرارَ لم يُقصَدْ به مجرّدُ التَّأكيد اللَّفظيّ، بل ارتقاءٌ في شدّةِ التَّهديد؛ فالأوّلى وعْدٌ بالعقوبة، والثّانيةُ تنبيهٌ على أنَّ العُقوبةَ الثّانية أشدُّ وأعظَمُ ممّا يتخيَّلونَ؛ إذًا فارتقاءُ الرّتبة هنا هو أنَّ ما سَيَلقَونه لاحقًا بعدَ إدراكِهم الأوّل سَيكون أدهَى وأعظمَ من مجرَّدِ المعرفةِ الأولى بالحقائق، بل هو تمكُّنُهم من العَذاب، وانغماسُهُم فيه، بعدَ فواتِ أوانِ التَّوبة والنَّجاة[1].

وُجوهٌ في تكرارِ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾:

تعـدُّدُ مَشاهِدِ التّهديد، منَ الموتِ إلى القيامة إلى العذابِ الشَّديد

ذُكِرَ في تفسيرِ تكرارِ قولِهِ تعالى ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وجوهٌ متعدّدة، كلُّها تهدفُ إلى بيانِ أنَّ التكرار لمجرَّدِ التّأكيد اللَّفظيِّ غيرُ كافٍ وحدَه لتفسير البلاغةِ فيه، بل هناك مقاصِدُ خاصّةٌ بكلِّ مَرّة، منها:

أنَّ الأوَّلَ توعّدٌ عندَ النّزع، والثّانيَ توعّدٌ في الآخرة؛ أي إنّ الكفار سيذوقونَ أوّلَ مَراحِلِ العذاب عندَ سَكَرات الموت (النَّزع)، ثمَّ يعلمونَ العذابَ الأكبرَ عندَ البَعْث والنُّشور، فهما مَشهدانِ مُختلفانِ.

أوِ الأوّلُ توعّدٌ بأهوالِ القيامة، والثّاني بالنّار نفسِها؛ فالمشهدُ الأوّلُ إرعابٌ لما فيه من زلازلَ وأهوال، أمّا المشهد الثّاني فهو دخولُ النّارِ حقيقةً.

أوِ الأوّلُ ردعٌ عن التّساؤُلِ والاستهزاء، والثّاني عن الكُفر ذاتِهِ؛ فالأوّلُ نهيٌ عن العبَثِ والتَّشكيك، والثّاني نهيٌ أعمُّ وأخطَرُ، وهو الاستمرارُ في الكفر والصَّدِّ عن الحقِّ[2].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 684، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 278، وأبو حيّان، البحر: 10/ 383، وأبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 12، ودرويش، إعراب القران: 10/ 351.

(2) الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 595، وأبو السّعود إرشاد العقل: 9/ 85.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبأُ والخَبَرُ والحَديث:

النّبأ هو الخبرُ العظيم الَّذي له شأنٌ، وتترتّبُ عليه عاقبةٌ

(النَّبأُ) أصلُ (نبأ): الانتقالُ من مكانٍ إلى مكان، وسُمّيت الأخبارُ المَحكيّة بالأنباء؛ لكونِها تنتقلُ من جهةٍ إلى جهة، والنّبأُ يقال في الخبَر الَّذي لا يَعلمُه المُخبَر، ولذا يَقتصِرُ على الأخبارِ ذاتِ الفائدةِ العَظيمة؛ لأنّ الإخبارَ بما لا يعلمُهُ المُخاطَب، يُحدِثُ عنده عِلمًا لم يكُنْ عندَه فيَستفيدُ. وأمّا (الخبَر) فهو العِلْمُ بحقيقةِ الشَّيء، وهو عامٌّ في جميعِ المعلومات المَعلومةِ بالخبَر، وهو أعمّ من النّبأ في نفْسِه وفي جِهتِه (المُخبَر)، فقد يكونُ حقًّا وباطلًا، وقد يكونُ ذا فائدةٍ أوْ خاليًا منها، وقد يكون المُخبَر عالِمًا بما يُخبَر به أوْ غيرَ عالم[1]. وأمّا (الأحاديث) فهي الأقاويلُ الّتي تحدُثُ بعدَ أنْ لم تكُنْ، وكلامٌ يحدثُ منه الشّيءُ بعد الشَّيء؛ فأصل ذلك من الحُدوث، وهو النُّشوءُ الجديدُ للشّيءِ قبلَ أنْ يكونَ، ومنه الحديثُ ضدُّ القديم[2]. فهو أخصُّ من (الخبَر) أيضًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خبر - نبأ).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حدث).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"